الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ »[1] الآية ـ ومن ذلك قصة رجم اليهوديين وفيه وجود آية الرجم[2] . ويؤيده قوله تعالى : « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »[3].

ثانيها : أن التبديل وقع ولكن فى معظمها . وأدلته كثيرة . وينبغى حمل الأول عليه.

ثالثها : وقع فى اليسير منها . ومعظمها باق على حاله . ونصره الشيخ تقىّ الدين بن تيمية فى كتابه « الرد الصحيح على من بدل دين المسيح » .

رابعها : إنما وقع التبديل والتغيير فى المعانى لا فى الألفاظ وهو المذكور هنا اه .

وبالجملة فكتب الكتابيين ، كأقوالهم ، لا يعتمد عليها كلها . لظهور الكذب والتناقض فيها إلى اليوم . ولظهور تلفيقها . فهى ككتب القصص عندنا . فيها شىء من القرآن والسنة ، ولكنه ممزوج بالأكاذيب والآراء المقتبسة من الأمم . ثم إن موافقة القرآن الكريم أو الحديث الصحيح لبعض ما فى كتبهم دون بعض ، يدل على أن الله تعالى بيّن له حق كلامهم من باطله ، وصدقه من كذبه . وهذا معنى قوله تعالى : « وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ »[4].

قال بعضهم : لاشىء يعول عليه فى صحة بعض أقوال كتب اليهود دون بعض، بعدما طرأ عليها من الضياع والتحريف والخلط. إلا الوحى. وقد ثبتت نبوة محمد ﷺ بالدلائل الساطعة والآثار النافعة. انتهى . أى فعلى وحيه المعوّل فالحمد لله الذى وفقنا لاتباعه .

---

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٧] ونصها : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ٤٦ .

(٣) انظر الحاشية رقم ٢ ص ٤٥ .

(٤) انظر الحاشية رقم ٣ ص ٤٥ .

فصل فى معنى ما نقل أن للقرآن ظاهرا وباطنا

قال الشاطبىّ فى الموافقات : من الناس من زعم أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وربما نقلوا فى ذلك بعض الأحاديث والآثار . فمن الحسن ، مما أرسله عن النبىّ ﷺ ، أنه قال: ما أنزل الله آية إلا لها ظهر وبطن ، بمعنى ظاهر وباطن، وكل حرف حد وكل حد مطلع . وفسر بأن الظهر والظاهر هو ظاهر التلاوة، والباطن هو الفهم عن الله لمراده ؛ لأن الله تعالى قال: « فَمَالِ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً »(١) . والمعنى لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ، ولم يرد أنهم لا يفهمون نفس الكلام. كيف وهو منزل بلسانهم؟ ولكن لم يحظوا بفهم مراد الله من الكلام ، وكان هذا هو معنى ماروى عن علىّ أنه سُئل هل عندكم كتاب؟ فقال: لا، إلا كتاب الله ، أو فهم أُعطيه رجل مسلم ، أو مافى هذه الصحيفة(٢) . الحديث.

(١) [٤ / النساء / ٧٨] ونصها : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَمَالِ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً .

(٢) صحيح البخارىّ فى: ٩٦ ـ كتاب الاعتصام، ٥ ـ باب مايكره من التعمق والتنازع فى العلم والغلوّ فى الدين والبدع .

عن إبراهيم التيمىّ قال: حدثنى أبى قال : خطبنا علىّ رضى الله عنه على منبر من آجرّ، وعليه سيف ، فيه صحيفة معلقة . فقال : والله، ماعندنا من كتاب يقرأ إلا كتاب الله. ومافى هذه الصحيفة . فنشرها فإذا فيها : أسنان الإبل . وإذا فيها: المدينة حرم من عَيْر إلى كذا (وكذا يعنى ثورا . كما جاء فى روايات أخرى متعددة) فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا . وإذا فيه (كذا): ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم. فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا. وإذا فيها : مَن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

وإليه يرجع تفسير الحسن للحديث إذ قال : الظهر هو الظاهر والباطن هو السر .

وقال تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »(١) . فظاهر المعنى شيء، وهم عارفون به لأنهم عرب . والمراد شيء آخر ، وهو الذى لاشك فيه أنه من عند الله . وإذا حصل التدبر لم يوجد فى القرآن اختلاف البتة. فهذا الوجه الذى من جهته يفهم الاتفاق، وينزاح الاختلاف هوالباطن المشار إليه . ولما قالوا فى الحسنة : هذا من عند الله ، وفى السيئة : هـذا من عند رسول الله ، بيّن لهم أن كلا من عند الله ، وأنهم لايفقهون حديثاً، لـكن بين الوجه الذى يتنزل عليه أن كلا من عندالله بقوله: « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ . . . »(٢) الآية . وقال تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا »(٣) فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد. وذلك ظاهر أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن فلم يحصل منهم تدبر .

قال بعضهم : الـكلام فى القرآن على ضربين : أحدهما يكون برواية ، فليس يعتبر فيها إلا النقل . والآخر يقع بفهم فليس يكون إلا بلسان من الحق إظهار حكمة عن لسان العبد ، وهذا الـكلام يشير إلى معنى كلام علىّ .

وحاصل هذا الـكلام أن المراد بالظاهر هو المفهوم العربىّ ، والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه . فإن كان مراد من أطلق هذه العبارة ما فسر ، فصحيح . ولا نزاع فيه . وإن أرادوا غير ذلك فهو إثبات أمر زائد على ما كان معلوماً عنـد الصحابة ومن بعدهم ، فلابد من دليل قطعىّ يثبت هـــذه الدعوى . لأنها أصل يحكم به على تفسير الـكتاب ،

(١) [٤ / النساء / ٨٢] ونصها : أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .

(٢) [٤ / النساء / ٧٩] ونصها : مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ، وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا .

(٣) [٤٧ / محمد عليه السلام / ٢٤] ونصها: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا .

فلا يكون ظنيا . وما استدل به إنما غايته ، إذا صح سنده ، أن ينتظم فى سلك المراسيل . وإذا تقرر هذا فليرجع إلى بيانهما على التفسير المذكور بحول الله . وله أمثلة تبين معناه بإطلاق . فعن ابن عباس[1] : كان عمر يدخلنى مع أصحاب النبى ﷺ . فقال له عبد الرحمن ابن عوف : أتدخله ولنا بنون مثله ؟ فقال له عمر : إنه من حيث تعلم . فسألنى عن هذه الآية: « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ » فقلت: إنما هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه . وقرأ السورة إلى آخرها . فقال عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم .

فظاهر هذه السورة أن الله أمر نبيه ﷺ أن يسبح بحمد الله ويستغفره إذ نصره الله وفتح عليه . وباطنها أن الله نعى إليه نفسه .

ولما نزل قوله تعالى: « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . . »[2] فرح الصحابة ، وبكى عمر وقال : ما بعد الكمال إلا النقصان . مستشعراً نعيه عليه السلام . فما عاش بعدها إلا أحدا وثمانين يوماً . وقال تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ . . . »[3] الآية . قال الكفار : ما بال العنكبوت والذباب يذكر فى القرآن .

---

(١) انظر الحاشية رقم ٢ ص ١٥ .

(٢) [٥ / المائدة / ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٤١] ونصها : مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ، اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

ماهذا الكلام لإلٍ فنزل « إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا »(١) فأخذوا بمجرد الظاهر ، ولم ينظروا فى المراد . فقال تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ . . . » الآية .

ويشبه مانحن فيه نظر الكفار للدنيا واعتدادهم منها بمجرد الظاهر الذى هو لهو ولعب، وظل زائل . وترك ما هو المقصود منها ؛ وهو كونها مجازًا ومعبرًا لا محل سكنى . وهذا هو باطنها على ما تقدم من التفسير .

ولما قال تعالى: « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ »(٢) نظر الكفار إلى ظاهر العدد . فقال أبوجهل، فيما روى: لايعجز كل عشر منكم أن يبطشوا برجل منهم . فبيّن الله تعالى باطن الأمر بقوله : « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً . . . »(٣) ، إلى قوله : « وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَٰذَا مَثَلًا » .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٦] ونصها : إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ .

(٢) [٧٤ / المدثر / ٢٧ـ٣٠] ونصها: وَمَا أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ .

(٣) [٧٤ / المدثر / ٣١] ونصها : وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ .

وقال: « يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ »(١) فنظروا إلى ظاهر الحياة الدنيا . وقال تعالى : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . . . » .

وقال تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ . . . »(٢) الآية . لما نزل القرآن ، الذى هو الهدى للناس ورحمة للمحسنين ناظره الكافر النضر بن الحرث بأخبار فارس والجاهلية ، أو بالغناء ، فهذا هو عدم الاعتبار لباطن ما أنزل الله .

وقال تعالى فى المنافقين : « لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ . . . »(٣) وهذا عدم فقه منهم. لأن من علم أن الله هو الذى بيده ملكوت كل شىء ، وأنه هو مصرف الأمور ، فهو الفقيه . ولذلك قال تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ».

وكذلك قوله تعالى : « صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ »(٤) لأنهم نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا .

فاعلمْ أن الله تعالى إذا نفى الفقه أو العلم عن قوم فذلك لوقوفهم مع ظاهر الأمر وعدم اعتبارهم للمراد منه . وإذا ثبت ذلك فهو لفهمهم مراد الله من خطابه ، وهو باطنه .

---

(١) [٦٣ / المنافقون / ٨] ونصها : يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٣١ / لقمان / ٦] ونصها : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ .

(٣) [٥٩ / الحشر / ١٣] ونصها: لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

(٤) [٩ / التوبة / ١٢٧] ونصها : وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

ثم قال الشاطبىّ :

فصل

فكل ما كان من المعانى العربيـة التى لا ينبنى فهم القرآن إلا عليها فهو داخل تحت الظاهر . فالمسائل البيانية ، والمنازع البلاغية لا معدل بها عن ظاهر القرآن ، فإذا فهم الفرق بين ضيِّق فى قوله تعـالى: « يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا . . . »(١) وبين ضائق فى قوله : « وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ . . . »(٢) والفرق بين النداء : « يا أيها الذين آمنوا، ويأيها الذين كفروا » وبين النداء « يا أيها الناس، أو يا بنى آدم » والفرق بين ترك العطف فى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ . . . »(٣) والعطف فى قوله : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ . . . »(٤) وكلاهما قد تقـدم عليه وصف المؤمنين . والفرق بين تركه أيضاً فى قوله : « مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا . . . »(٥) وبين الآية الأخرى :

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٢٥] ونصها: فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٢) [١١ / هود / ١٢] ونصها: فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ .

(٣) [٢ / البقرة / ٦] ونصها : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

(٤) [٣١ / لقمان / ٦] ونصها : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ .

(٥) [٢٦ / الشعراء / ١٥٤] ونصها: مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

« وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا »(١) . والفرق بين الرفع فى قوله : « قَالَ سَلَامٌ »(٢) والنصب فيما قبله من قوله : « قَالُوا سَلَامًا »(٢) . والفرق بين الإتيان بالفعل فى التذكر من قوله : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا »(٣) وبين الإتيان باسم الفاعل فى الإبصار من قوله : « فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ... » أو فهم الفرق بين إذا وإن فى قوله تعالى: « فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ... »(٤) وبين جاءتهم وتصبهم بالماضى مع إذا ، والمستقبل مع إن وكذلك قوله : « وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ »(٥) مع إتيانه بقوله: « فرحوا » بعد « إذا » و « يقنطون » بعد « إن » وأشباه ذلك من الأمور المعتبرة عند متأخرى أهل البيان ، فإذا حصل فهم ذلك كله على ترتيبه فى اللسان العربى ، فقد حصل فهم ظاهر القرآن .

ومن هنا حصل إعجاز القرآن عند القائلين بأن إعجازه بالفصاحة . فقال الله تعالى :

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٨٦] ونصها : وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ .

(٢) [١١ / هود / ٦٩] ونصها : وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

(٣) [٧ / الأعراف / ٢٠١] ونصها: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ .

(٤) [٧ / الأعراف / ١٣١] ونصها : فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

(٥) [١٠ / يونس / ٢١] ونصها: وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا ، قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ .

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ . . . »[1] الآية . وقال تعالى : « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ »[2] وهو لائق أن يكون الإعجاز بالفصاحة لا بغيرها . إذ لم يؤتوا على هذا التقدير إلا من باب ما يستطيعون مثله فى الجملة . ولأنهم دعوا وقلوبهم لاهية عن معناه الباطن الذى هو مراد الله من إنزاله . فإذا عرفوا عجزهم عنه عرفوا صدق الآتى به وحصل الإذعان ، وهو باب التوفيق والفهم لمراد الله تعالى . وكل ما كان من المعانى التى تقتضى تحقيق المخاطب بوصف العبودية والإقرار لله بالربوبية ، فذلك هو الباطن المراد والمقصود الذى أنزل القرآن لأجله . ويتبين ذلك بالشواهد المذكورة آنفا .

ومن ذلك أنه لما نزل : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً . . »[3] . قال أبو الدحداح : إن الله كريم يستقرض منا ما أعطانا . هذا معنى الحديث . وقالت اليهود : إن الله فقير ونحن أغنياء . ففهمُ أبو الدحداح هو الفقه وهو الباطن المراد . وفى رواية قال أبو الدحداح : يستقرضنا وهو غنىّ . فقال عليه السلام : نعم ليدخلكم الجنة . وفى الحديث قصة[4] .

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٣] ونصها : وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٢) [١١ / هود / ١٣] ونصها : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

(٣) [٥٧ / الحديد / ١١] ونصها : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ .

(٤) وهذه قصة أبى الدحداح ذكرها الإمام الحافظ ابن كثير فى تفسيره . جزء رابع ص ٣٠٧ ونصها :

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة . حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية (من ذا الذى =

وفهمُ اليهود لم يزد على مجرد القول العربىّ الظاهر ، ثم حمل استقراض الرب الغنىّ على استقراض العبد الفقير ، عافانا الله من ذلك .

من ذلك أن العبادات المأمور بها ، بل المأمورات والمنهيات كلها ، إنما طلب بها العبد شكرا لما أنعم الله به عليه . ألا ترى قوله : « وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(١) وفى الأخرى : « قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ »(٢) والشكر ضد الكفر ، فالايمان وفروعه هو الشكر ، فإذا دخل المكلف تحت أعباء التكليف بهذا القصد ، فهو الذى فهم المراد من الخطاب ، وحصل باطنه على التمام ، وإن هو فهم من ذلك مقتضى عصمة ماله ودمه فقط . فهذا خارج عن المقصود وواقف مع ظاهر الخطاب . فإن الله قال : « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . »(٣) ثم قال : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ... »(٣) فالمنافق

= يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له) قال أبو الدحداح الأنصارىّ : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال : نعم ، يا أبا الدحداح . قال : أرنى يدك يارسول الله ، قال فناوله يده . قال : فإنى قد أقرضت ربى حائطى . وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها . قال فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح! قالت : لبيك . قال : اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل . وفى رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح . ونقلت منه متاعها وصبيانها .

وإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « كم من عذق رداح ، فى الجنة لأبى الدحداح » وفى لفظ « رب نخلة مدلاة ، عروقها در وياقوت ، لأبى الدحداح فى الجنة » .

(١) [١٦ / النحل / ٧٨] ونصها : وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

(٢) [٣٢ / السجدة / ٩] ونصها : ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ .

(٣) [٩ / التوبة / ٥] ونصها : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

إنما فهم مجرد ظاهر الأمر من أن الدخول فيما دخل فيه المسلمون موجب لتخلية سبيلهم. فعملوا على الإحراز من عوادى الدنيا، وتركوا المقصود من ذلك، وهو الذى بينه القرآن من التعبد لله والوقوف على قدم الخدمة. فإذا كانت الصلاة تشعر بإلزام الشكر، بالخضوع لله والتعظيم لأمره فمن دخلها عرّيا من ذلك كيف يعد ممن فهم باطن القرآن؟ وكذلك إذا كان له مال حال عليه الحول فوجب عليه شكر النعمة ببذل اليسير من الكثير عوداً عليه بالمزيد، فوهبه عند رأس الحول فرارا من أدائها لا قصد له إلا ذلك، كيف يكون شاكرا للنعمة؟ وكذلك من يضارّ الزوجة لتنفك له من المهر على غير طيب النفس لا يعدّ عاملا بقوله تعالى: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ...»[1] حتى يجرى على معنى قوله تعالى: «فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا»[2].

ويجرى هنا مسائل الحيل أمثلة لهذا المعنى. لأن من فهم باطن ما خوطب به لم يحتل على أحكام الله حتى ينال منها بالتبديل والتغيير، ومن وقف مع مجرد الظاهر غير ملتفت إلى المعنى المقصود اقتحم هذه المتاهات البعيدة. وكذلك تجرى مسائل المبتدعة أمثلة أيضا. وهم الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. كما قال الخوارج لعلىّ: إنه حكّم الخلق فى دين الله والله يقول: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ»[3]. وقالوا: إنه محا نفسه من إمارة المؤمنين

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٩] ونصها: الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ، وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ، تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

(٢) [٤ / النساء / ٤] ونصها: وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا.

(٣) [٦ / الأنعام / ٥٧] ونصها: قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ. و [١٢ / يوسف / ٤٠] ونصها: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا =

فهو إذاً أمير الكافرين. وقالوا لابن عباس: لا تناظروه فإنه ممن قال الله فيهم: « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ »(١). وكما زعم أهل التشبيه فى صفة البارى، حين أخذوا بظاهر قوله: « تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا »(٢) « مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا »(٣) « وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »(٤) « وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(٥). وحكموا مقتضاه بالقياس على المخلوقين فأسرفوا ماشاءوا. فلو نظر الخوارج أن الله تعالى قد حكم الخلق فى دينه فى قوله: « يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ »(٦).

أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّٰهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ .

و [١٢ / يوسف / ٦٧] ونصها : وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَمَا أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَىْءٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّٰهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ .

(١) [٤٣ / الزخرف / ٥٨] ونصها : وَقَالُوا ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ، مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ .

(٢) [٥٤ / القمر / ١٣ و ١٤] ونصهما: وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ .

(٣) [٣٦ / يس / ٧١] ونصها: أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ .

(٤) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

(٥) [٣٩ / الزمر / ٦٧] ونصها : وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٦) [٥ / المائدة / ٩٥] ونصها : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ =

وقوله : « فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا »[1]. لعلموا أن قوله : إن الحكم إلا لله ، غير مناف لما فعله علىّ ، وأنه من جملة حكم الله . فإن تحكيم الرجال يرجع به الحكم لله وحده ، فكذلك ما كان مثله مما فعله علىّ . ولو نظروا إلى أن محو الاسم من أمرٍ لا يقتضى إثباته لضده ، لما قالوا إنه أمير الكافرين . وهكذا المشبهة لو حققت معنى قوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » فى الآيات المذكورة، لفهموا بواطنها، وإن الرب منزه عن سمات المخلوقين . وعلى الجملة فكل من زاغ ومال عن الصراط المستقيم ، فبمقدار ما فاته من باطن القرآن فهما وعلماً . وكل من أصاب الحق وصادف الصواب فعلى مقدار ما حصل له من فهم باطنه .

مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ .

(١) [٤ / النساء / ٣٥] ونصها: وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً .